
رواية
كان
كابوساً
الكاتبة: زينب حمدو علي



كان كابوسًا

إسم الكتاب: كان كابوسًا
الكاتبة: زينب حمدو علي
عدد الصفحات: ٦٥
الغلاف والتنسيق: نجاح عيتاني
"NAI"
التدقيق: نجاح عيتاني
الطبعة الأولى: ٢٠٢٦

الإهــــــداء

إلى العالقين بين جحيم الأحلام وجحيم الواقع،
إلى الذين تحدّثوا كثيرًا عمّا رأته أعينهم، ولم يُصدّقهم أحد...
أنا أُصدّقكم.
وهذا الكتاب لكم.

✦ ***كان كابوسًا*** ✦



الفصل

مَنْ أنْتِ؟

كنتُ أركضُ بكلِّ قوتي، أنفاسي تتسارع وأنا أهربُ مِن كيانٍ غريبٍ إلى مصيرٍ غامض. أسرعتُ إلى أول بابٍ ظهر في وجهي وأغلقته بإحكام، وكأنّ هذا الباب هو أماني الوحيد في تلك الفوضى.
صوتُ خطواتهِ المتثاقلةِ يقترب، هرعتُ إلى الخزانة واختبأتُ داخلها، وحبستُ أنفاسي ما إنّ سمعتُ تحطُم الباب. أغمضت عينيَّ وأنا أردد في سري: "لا تقترب أرجوك لا"، ولكن هيهات! فكنتُ أشعر بخطواته تقترب باتجاهي، ومع كُلِّ خطوة كانت حرارة المكان تزداد وكأنني في فرن. فتح الكيانُ الغامض باب الخزانة...

كادتْ عينايَّ تخرجُان مِن مكانهما وتتدحرجان أمامي عندما رأيتهُ... بوجهه المُنسلخ ذلك وجلدهِ المُحترقِ وقوامه الضخم، كان شَكلهُ مُقززاً ومُخيفاً.
مَدَّ قبضتهُ وأمسكَ بوجهي، حينها شعرتُ أنَّها النهاية، ولم أجد شيئاً أفعله سوى الاستسلام لما سيحدث.

سحبني من ساقي ورفعني في الهواء؛ كانت أقدامي بالأعلى ورأسي للأسفل، وكاد قلبي أن يتوقف. خوف، توتر، قلق، رعب.. وخطواتٌ قادمة أيضاً!

أغمضت عينيَّ، وإذا بي أذكر الملجأ الوحيد، نعم "الله". أخذتُ أطمئنُ قلبي: "الله معنا ولن يتركنا سننجو"، فبدأتُ أرتلُ آياتِ مِن القرآن بصوت مهزوم يكادُ يُسمع، فارتختْ قبضته ونظرَ إليَّ بعينيه الصفراوين منذهلاً، وأنزلني إلى الأرض. لم أستطع أن أقف، سقطت أرضاً فركبتاي لم تعودا تقويان على حملي.

جلسَ هو أمامي واضعاً رأسهُ في حجري يستمعُ إلى التلاوةِ بسكينة. لم أستطعْ الهرب، فقد امتلأت الغرفة بنسخٍ مِنه، وأنا لا أملكُ شيئاً سوى الاستمرار بالتلاوة والدّعاء في سِرّي.

بدأتْ الكيانات بالاقتراب مِني فأغمضتُ عينيَّ بقوة أدعو الله أنْ ينتهي ما كنتُ أعيشه. فتحتهما مُجدداً، لأجدَ نفسي في غُرفتي المُظلمةِ. حَمدتُ الله قائلةً: "الحمدُ لله، كانّ كابوساً".

أنرتُ الضوء وأشحتُ بنظري إلى زوايا الغرفة وكأنّني أتأكد من عدم وجود شيءٍ ما أو أحدٍ ما، وإذا بأُمي تفتحُ الباب ونظرتْ إليَّ وابتسمت.

كنتُ خائفة لدرجةِ أنَّني هرعتُ إليها وبكيتُ كالطفلةِ في حُضنها، وبدأت أحكي لها عن الكابوس، وقلتُ لها معاتبة: "لقد تأخرتِ..."، وتمتمت في خيبة: "لماذا رحلتِ وتركَتِني وحيدة؟". ضمتني بقوة، وعندها صمتت قليلاً... وعندما استوعبت...

اتسعت حدقتا عينيَّ...

وشعرتُ بانقباضةٍ في يسار صدري..

لأنّني تذكرتُ أنَّني كنتُ لوحدي في البيتِ ذلكَ اليوم، وتلكَ التي تبتسم وتمسحُ على رأسي ليستْ أُمي.

تنهدت وقلت بصوت مرتجف:

"مَن أنتِ؟"


الفصل 2
اركضي... ما استطعتِ

أبعدتُ تلك التي ظننتها أمي، ثم فتحتُ باب غرفتي واندفعتُ إلى الخارج.
وما إن ابتعدتُ عنها حتى سمعتها تردد خلفي بصوتٍ أجوف، كأنه يخرج من بئرٍ سحيقة:
– اركضي... ما استطعتِ...
ركضتُ بكل ما أوتيتُ من قوة.

خرجتُ من المنزل، وأخذتُ أتلفت حولي.
أشجارٌ من هنا، وأشجارٌ من هناك، والليل حالك السواد.
كانت الأرض مغطاةً بأوراق الشجر اليابسة، والسماء مرصعةً بالنجوم، يتوسطها القمر، مصدر النور الوحيد في تلك الليلة.
كان ضوؤه الفضي الناعم يتسلل بين الأغصان، فيرسم ظلالًا غريبة على الأرض.

ساد المكان هدوءٌ مخيف.
هدوءٌ جعلني أسمع اندفاع الدم في عروقي، وأشعر بنبضات قلبي وكأنها تحاول الفرار من صدري.

ترددت في ذهني فكرة واحدة:
«إلى أين سأهرب؟»
كنتُ أعرف هذه البقعة جيداً.
فقد ترعرعتُ فيها منذ نعومة أظافري.
حددتُ وجهتي، وانطلقتُ أركض.
ومع كل بضعة أمتار، كنتُ ألتفت خلفي لأتأكد من أن أحداً لا يلاحقني.
توقفتُ عند شجرةٍ ضخمة لألتقط أنفاسي.
حبستُ نفسي فجأة.
كان هناك صوت.
صوتٌ خافت.
كُسر غصن.
تمنيتُ لو أنني أتوهّم.
لكن صوت سحق الأوراق الجافة تبعه مباشرة.
خطوات...
كانت خطواتٍ تقترب نحوي.
وفي اللحظة نفسها، انطلقت ساقاي بالركض من تلقاء نفسيهما.
رأيتُ المنزل الذي كنتُ أقصده، فأسرعتُ نحوه.
طرقتُ الباب بجنون.

فتح خالي الباب، وقد بدا الذهول واضحًا على وجهه من مجيئي في هذا الوقت المتأخر.
وقبل أن ينطق بكلمة، سألته بلهفة:
— أين رغد؟
أجاب مستغربًا:
— نائمة في الأعلى.
تركته دون تفسير، وصعدتُ الدرج مسرعة.
دخلتُ الغرفة وجلستُ قرب رغد على السرير.
حينها فقط...
شعرتُ بشيءٍ من الأمان.
رفعتُ نظري إلى ساعة الحائط.
كان صوت عقاربها يملأُ المكان.
الثالثة والنصف بعد منتصف الليل.
بعد دقائق، طرقت زوجة خالي الباب.
ثم دخلت الغرفة.
أضاءت المصباح وقالت بلطف:
— زينة، ما بكِ يا ابنتي؟ لقد أقلقني خالك عليكِ.
أجبتُ وأنا أحاول إخفاء اضطرابي:
— لا شيء... فقط خفتُ قليلًا لأنني وحدي في المنزل، واشتقتُ إلى أمي. لقد طال غيابها.

ابتسمت لي ابتسامةً دافئة وقالت:

— لا بأس، حاولي أن تنامي الآن. تصبحين على خير.

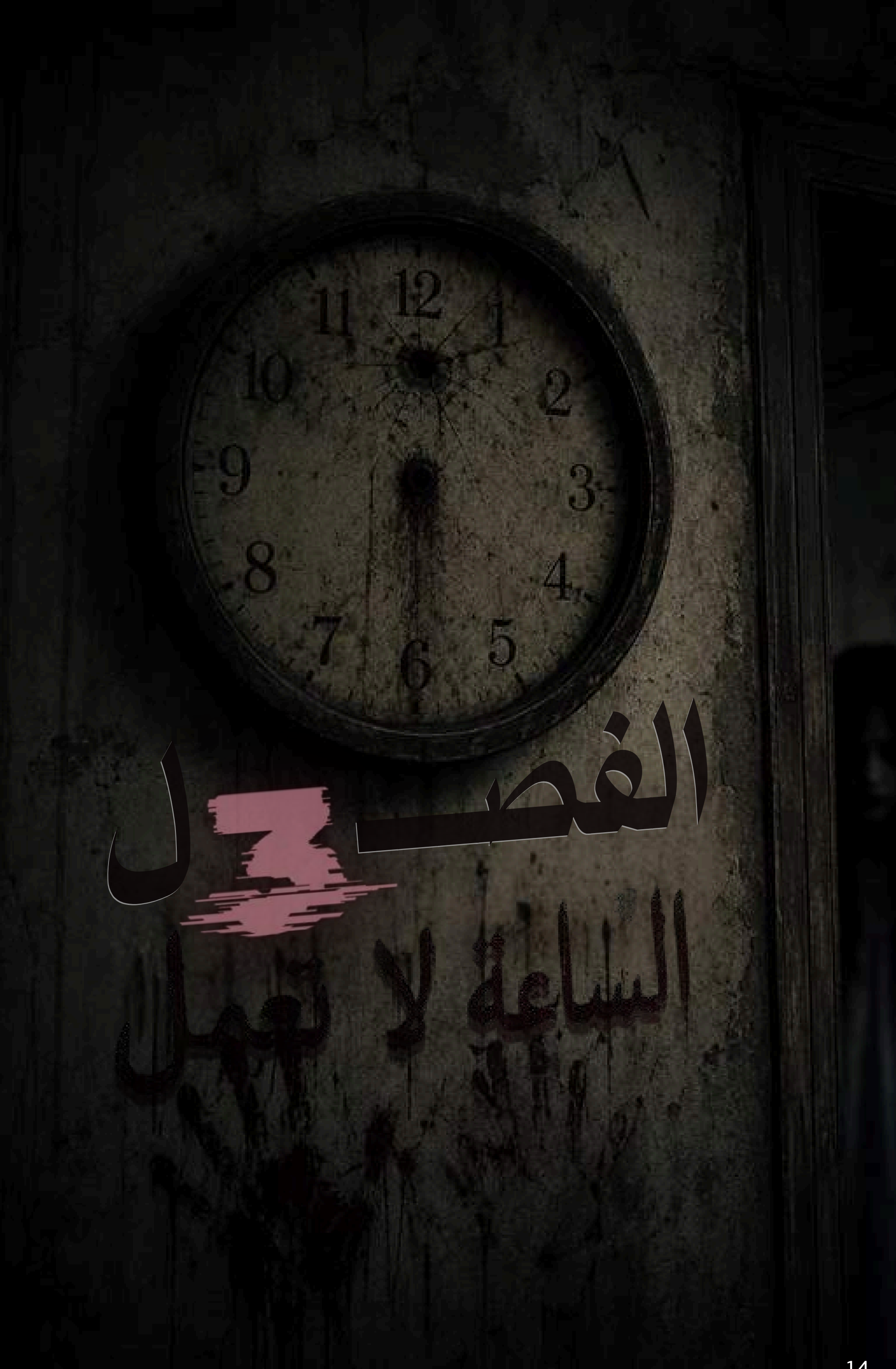
ثم أغلقت الباب خلفها وغادرت.

تنهدتُ بعمق.

تمددتُ إلى جوار رغد.

ولا أدري كيف...

لكنني غرقتُ في النوم.


الفصل 3
الساعة لا تعمل

استيقظتُ فجأة.

لا أدري كم من الوقت نمت، لكن الغرفة بدت كما هي.

كانت رغد ما تزال ممددة إلى جواري، تتنفس ببطء وهدوء.

نظرتُ إلى ساعة الحائط.

ما زالت تشير إلى الثالثة والنصف تمامًا.

كأن الزمن توقّف عند تلك اللحظة.

لم يتقدم.

ولم يتأخر.

نهضتُ بهدوء، واقتربتُ من الساعة.

دققتُ النظر فيها.

كانت عقاربها ثابتة.

أما صوتها الذي كان يملأ الغرفة قبل قليل، فقد اختفى تمامًا.

التفتُّ نحو النافذة.

الليل نفسه.

القمر نفسه.

حتى النجوم بدت في أماكنها ذاتها.

لم يتغير شيء.

شعرتُ بقشعريرةٍ تسري في ظهري، فأسرعتُ إلى إغلاق الستارة.
ثم عدتُ إلى السرير.
لكن رغد...
لم تكن هناك.
تجمدتُ في مكاني.
نظرتُ حولي.
لم يكن في الغرفة أحد.
ناديتُ بصوتٍ خافت:
— رغد؟
لا جواب.
خرجتُ من الغرفة ببطء.
هبطتُ الدرج خطوةً خطوة، بينما كانت قدماي ترتجفان من البرد والخوف.

بدا كل شيء في المنزل مختلفًا.
اللوحات المعلقة على الجدران لم أعتد رؤيتها.
والصور العائلية اختفت.
حتى الستائر أصبحت أكثر قتامة.
وكانت هناك رائحة غريبة تتسلل في المكان.

رائحة تشبه مزيجًا من الدخان المحترق والماء الآسن.

فجأة...

سمعتُ بكاءً مكتومًا قادمًا من الطابق السفلي.

توقفتُ مكاني.

أصغيتُ جيدًا.

كان البكاء واضحًا هذه المرة.

بكاء طفلةٍ خائفة.

مكسورة.

ومألوفة بطريقةٍ أثارت الرعب في قلبي.

اقتربتُ من الباب المؤدي إلى القبو.

كان مواربًا قليلًا.

دفعتُه برفق.

ثم بدأتُ أنزل السلالم بصمت.

ومع كل خطوةٍ نحو الأسفل، كان الهواء يزداد ثقلًا.

وكان البكاء يزداد وضوحًا.

حتى شعرتُ وكأنه يخرج من أعماقي أنا.

وصلتُ إلى آخر السلالم.

وكانت هناك...

طفلةٌ تجلس في الزاوية.
شعرها مبلل.
ورأسها منحنٍ نحو الأرض.
اقتربتُ منها بحذرٍ وقلت:
– من أنتِ؟
رفعت رأسها ببطء.
توقّف قلبي.
كان وجهي.
نفس عينيّ.
نفس أنفي.
حتى الخوف الساكن في ملامحها كان خوفي أنا.
نظرت إليّ وقالت بصوتي تمامًا:
– هربتِ وتركتِني هنا...
أنتِ السبب.
تراجعتُ مذعورة.
تعثرتُ وسقطتُ أرضًا.
بدأتُ ألهث بعنف.
لكن الطفلة اختفت.
وكأنها لم تكن موجودة أصلًا.
وفي مكانها...

ظهرت تلك التي كانت تشبه أمي.
كانت واقفة عند أعلى السُّلَّم.
تنظر إليّ بابتسامةٍ باردة.
قالت:
– الساعة لا تعمل يا زينة...
لأن الوقت توقّف عند خطيئتكِ.
ارتجف صوتي وأنا أسألها:
– أيُّ خطيئة؟
اتسعت ابتسامتها.
بدا وكأن طرفي فمها يتمزقان ببطء.
ثم قالت:
– حين اخترتِ الهرب...
وتركتِ كل شيءٍ خلفكِ.
صرختُ بكل ما تبقى في داخلي:
– كفى! ما الذي يحدث؟!
أغمضتُ عينيَّ بقوة.
وأخذتُ أردد برجاءٍ يائس:
– يا رب...
أخرجني من هذا المكان.
أرجوك... أرجوك...

وحين فتحتُ عينيَّ مجددًا...
كنتُ في غرفة رغد.
تسارعت أنفاسي.
التفتُّ نحو ساعة الحائط.
ما زالت تشير إلى الثالثة والنصف.
نظرتُ إلى رغد.
كانت ممددة إلى جواري كما كانت من قبل.
لكن هذه المرة...
كانت تبتسم.
وعيناها مفتوحتان على اتساعهما.
تحدقان إلى السقف دون أن ترمشا.
مددتُ يدي لأوقظها...
فلم تتحرك.



الفصـــل

لا أحد يتذكركِ

استجمعتُ أنفاسي.
مددتُ يدي وضغطتُ على كتف رغد محاوِلةً إيقاظها.
— رغد؟
لكنها لم تتحرك.
أشعلتُ المصباح الجانبي.

كان وجهها ساكنًا على نحوٍ مخيف.
تلك الابتسامة ما زالت مرسومة على شفتيها، كأنها تجمّدت في مكانها.
مددتُ يدي إلى عنقها أتحسس النبض.
لا شيء.
تراجعتُ إلى الخلف مذعورة.
اصطدمتُ بالطاولة الصغيرة المجاورة للسرير.
سقطت الساعة على الأرض وتحطمت.
لكن...
لم يصدر عنها أي صوت.
تجمدتُ في مكاني.
حتى الزجاج المتناثر بدا وكأنه تحطم في عالمٍ لا يعرف الضجيج.

ركضتُ نحو الطابق السفلي وأنا أصرخ:

— خالي! خالي!

— زوجة خالي!

— أرجوكم... أحدكم تعالوا!

لكن لم يجبني أحد.

بدأتُ أفتح الأبواب واحدًا تلو الآخر.

غرفة الجلوس.

المطبخ.

الممر.

الغرف جميعها.

لا أحد.

كان المنزل فارغًا.

هادئًا بطريقةٍ مقززة.

أسرعتُ نحو الباب الخارجي.

انفتح بسهولة.

خرجتُ إلى الشارع.

ثم توقفت.

هذا ليس الحي الذي أعرفه.

كان الشارع طويلًا ومظلمًا على نحوٍ غير طبيعي.

البيوت بلا ملامح مألوفة.

والأشجار ملتوية وغريبة، كأنها نبتت من أعماق كوابيسي.
استدرتُ لأعود إلى المنزل.
لكن المنزل لم يكن هناك.
اختفى.
وكأنه لم يوجد يومًا.
لم يبقَ خلفي سوى شارعٍ فارغ.
أما الطريق...
فكان يمتد إلى الأمام فقط.
بدأتُ أسير.

ومع كل خطوة، شعرتُ بأن شيئًا داخلي يتقلص.
كأن قوةً خفية تسحبني إلى أعماقي.
إلى خوفي.
إلى وحدتي.
إلى ذنبٍ لا أتذكره.
ثم رأيتها.
امرأة تجلس على كرسي خشبي أمام منزلٍ باهت الألوان.
كانت تقرأ كتابًا بهدوء.

اقتربتُ منها بسرعة وقلت:
— أين أنا؟
— أرجوكِ... أنا ضائعة.
رفعت رأسها ببطء.
ونظرت إليّ.
ثم قالت ببرود:
— ومن تكونين؟
أجبتُ بسرعة:
— زينة.
اسمي زينة.
أتيتُ من هناك... من منزل خالي.
قاطعتني قائلة:
— أي منزل؟

صمتت لحظة.
ثم أضافت:
— لا أحد يسكن هنا منذ سنوات.
شعرتُ بقلبي يهبط إلى قدمي.
وتابعت:
— ولا أحد باسم زينة يعيش في هذه المدينة.

قلتُ بذهول:
– لكنني كنت هناك!
رأيتُ رغد وخالي وزوجته...

ابتسمت ابتسامة صغيرة بالكاد ظهرت على وجهها.
ثم همست:
– عزيزتي...
لا أحد يتذكركِ.
اتسعت عيناي.
تراجعتُ خطوة إلى الخلف.

أما هي، فعادت إلى كتابها وكأن شيئًا لم يحدث.
صرختُ بأعلى صوتي:
– أنا موجودة!
– أقسم أنني كنت هناك!
– أقسم أنني حقيقية!
لكن صوتي لم يعد مسموعًا.
بدأ الناس يمرون من حولي، رجال، نساء، أطفال، مشون وكأنني غير موجودة.

وقفتُ في وسط الشارع.
أصرخ.
أركض.
أبكي.
أطرق الأبواب.
أتوسل.
لكن لا أحد كان ينظر إليّ.
لا أحد كان يسمعني.
لا أحد كان يعرف من أكون.
ولا أحد... يتذكرني.

الفصل 5

البيت القديم



ظللتُ أمشي بلا اتجاه.
كانت أقدامي تنغرس في ترابٍ لم ألمسه من قبل،
بينما بدا الهواء من حولي أثقل من ذاكرتي نفسها.
كنتُ أظن أنني تائهة.
لكن الحقيقة كانت مختلفة.
كنتُ أعيد اكتشاف الخراب الذي يسكن داخلي.
وفجأة...
ظهر أمامي بيتٌ قديم.
كان مغطى بالياسمين اليابس، ونوافذه مكسورة،
وبابه الخشبي مواربًا قليلًا.
كأن أحدًا ينتظرني.
اقتربتُ منه ببطء.
كان هناك شيءٌ في أعماقي يعرف هذا المكان.
شيءٌ قديم...
وشديد الألم.
دخلتُ.
أصدر الخشب أنينًا خافتًا تحت خطواتي.
أما الرائحة، فلم تكن رائحة غبارٍ مهجور فحسب.
بل مزيجًا من طفولةٍ منسية...
وخوفٍ ما زال حيًّا.

وفجأة بدأت الهمسات.
أصواتٌ بعيدة.
أصواتٌ من الماضي.
"هنا كنتِ تبكين."
"هنا اختبأتِ ذات ليلة."
"هنا سمعتِه للمرة الأولى..."
تجمدتُ في مكاني.
ثم تقدمتُ نحو الجدار الأيسر.
كان هناك إطارٌ مائل، تغطيه طبقة كثيفة من الغبار.
مددتُ يدي ومسحتُ الزجاج بطرف كمي.
وحين ظهرت الصورة...
تجمد الدم في عروقي.
كانت صورةً قديمة بالأبيض والأسود.
باهتة.
لكنها واضحة بما يكفي لتحطم كل شيء.
كنتُ أنا.
طفلة صغيرة لا تتجاوز السابعة من عمرها.
أجلس على الأرض وأبكي بحرقة.
وجهي ملتف نحو الكاميرا.

والدموع تنحدر على خديّ.
لكن ما أرعبني حقًا...
لم يكن البكاء.
بل نظرة الخوف في عينيّ.
كانت نظرة شخصٍ رأى شيئًا لا ينبغي لطفلٍ أن يراه.
خلفي في الصورة...
كان يقف ظل.
ظلٌّ شخصٍ طويل عند الباب.
لم أستطع تمييز ملامحه.
وكأن الصورة نفسها ترفض أن تكشف هويته.
في الزاوية السفلية كُتب التاريخ:
13 نيسان – 2012
وضعتُ يدي على فمي.
كان قلبي يقفز داخل صدري بعنف.
لا أتذكر هذا اليوم.
لا أتذكر هذه الصورة.
ولا أتذكر هذا البيت.
ومع ذلك... كانت الصورة معلقة هنا.
كأن أحدًا تركها خصيصًا لأجل أن أجدها.

عندها...
سمعتُ صوتًا.
صوتًا خافتًا صادرًا من الطابق العلوي.
صوت طفلة.
صوتي أنا.
قال بخوف:
– زينة؟
– تعالي...
– أنا خائفة.
تراجعتُ خطوة إلى الخلف.
ثم تقدمتُ خطوتين.
ما الذي ينتظرني هناك؟
لماذا كنت أبكي في تلك الصورة؟
من صاحب ذلك الظل؟
ومن أكون أنا حقًا؟
رفعتُ رأسي نحو الدرج.
وبدأتُ أصعد ببطء.
عند أول درجة، لفت انتباهي شيءٌ على الحائط.
كتابة صغيرة بأحرفٍ متعرجة.
كأن طفلة كتبتها على عجلٍ.

اقتربتُ أكثر.
وكان مكتوبًا:
"لا تذهبي... هو يراقبك."
تحت العبارة تدلت دمية صغيرة من خيطٍ ممزق.
كان نصف وجهها مفقودًا.
أما عيناها الزجاجيتان، فكانتا تحدقان بي كأنهما تعرفانني منذ زمن.

انتشرت في المكان رائحة خفيفة من اللافندر.
رائحةٌ لم أعرف مصدرها.
ومع ذلك... أيقظت داخلي ذكرى بعيدة، مشوشة، تكاد تتلاشى كلما حاولت الإمساك بها.
في منتصف الدرج توقفت.

لم أستطع تجاهل ذلك الشعور.
الدمية ليست مجرد لعبة.
مددتُ يدي وأمسكتها.
كانت باردة على نحوٍ غريب.
أما الخيط الذي تتدلى منه، فبدا ممزقًا ومستعدًا للانقطاع في أي لحظة.

لكنّه...

لم ينقطع.

وفجأة...

عاد الصوت من الأعلى.

أقرب من السابق.

أوضح.

وأشد خوفًا.

— زينة...

— تعالي...

— أنا خائفة.

الفصل ٥

المرآة



لم أعد أتحكم بجسدي.
كأن قوةً خفية سحبتني إلى عمق الظلام، فأغرقتني في دوامةٍ من اللاوعي، حيث توقف الزمن وتلاشى الواقع.
لم أشعر بالهواء.
ولا بالأرض تحت قدميّ.
كل شيءٍ تحول إلى صمتٍ مطبق.
وعندما فتحتُ عينيّ، وجدتُ نفسي جالسةً في غرفتي.
لكن شيئًا ما كان مختلفًا.

كان الهواء باردًا وثقيلًا، والضوء باهتًا على نحوٍ غريب.
ومع ذلك، كان هناك مصدرٌ وحيد للنور.
في الزاوية اليسرى من الغرفة.
هناك...
كان دفتر الذكريات.
يتوهج بضوءٍ خافت، وكأن صفحاته تتنفس.
اقتربتُ منه ببطء.
جلستُ إلى جانبه، وبدأتُ أقلب صفحاته.

كانت كل صفحة تحمل جزءًا مني.
صورًا قديمة.
كلماتٍ منسية.
وخربشاتَ طفلةٍ لم تعد تتذكر نفسها.
لكن منتصف الدفتر أخفى شيئًا لم يكن موجودًا من قبل.
ورقة.
بيضاء في ظاهرها.
إلا أن الكلمات بدأت تظهر عليها تدريجيًا، كأنها تُكتب أمام عينيّ.
وجاء فيها:
"ما تتذكرينه ليس الحقيقة... بل ما تُرك لكِ لتتذكريه.
في كل مرةٍ تحاولين فيها التذكر، يُعاد كل شيءٍ إلى نقطة البداية."
ارتجفت يداي.

كانت الجملة مألوفة على نحوٍ مرعب.
كأنني كتبتها بنفسي.
أو حلمتُ بها، أو ربما... عشتها.

بدأت الأسئلة تتراكم فوق صدري.
هل أنا حقًا زينة التي أعرفها؟
من الذي يكتب لي داخل ذاكرتي؟
ومن هم الذين يعيدون كل شيء إلى البداية؟
وإن كانت ذكرياتي ليست حقيقية...
فمن أكون أنا؟
قلبتُ الصفحة التالية.
وهناك...
ظهر اسم واحد.
"**جان.**"
لم يكن مجرد اسم عابر.
كان مكتوبًا بطريقةٍ مختلفة.
أثقل من بقية الكلمات.
وكأن الاسم نفسه يحمل حضورًا ماديًا.
وجودًا يتجاوز الورق والحبر.
شعرتُ بانقباضٍ غامض في صدري.
فنهضتُ واتجهتُ نحو المرآة الصغيرة المعلقة على الحائط.
وقفتُ أمامها.
نظرتُ إلى انعكاسي.

في البداية رأيت نفسي.
لكن بعد لحظات...
أدركتُ أن شيئًا ما ليس على ما يرام.
لم تكن عيناي كما أعرفهما.
كان بؤبؤاهما أوسع من المعتاد.
أعمق.
كأن داخلهما عالمًا آخر.
ثم رأيتها.
الطفلة.
ظهرت في عمق انعكاسي.
الطفلة التي كنتُها يومًا.
الطفلة التي نسيتُ أنني كنتُها.
حدقتْ بي من خلف المرآة.
صامتة.
خائفة.
وكأنها تنتظر مني أن أتذكر.
وفجأة...
انفتح الباب بعنف.
استدرتُ بسرعة.
كان خالي واقفًا عند المدخل، وجهه ساكن.

وعيناه تنظران إليّ بطريقةٍ جعلت الدم يتجمّد في عروقي.

وكأنني أراه للمرة الأولى.

قال بصوتٍ بارد:

— زينة...

— أين كنتِ؟

— ولماذا لم تبقي في غرفتك؟

فتحتُ فمي لأجيب.

لكن الكلمات لم تخرج.

عندها...

ابتسم، تلك الابتسامة الغريبة.

ابتسامة لا تشبه أي تعبير عرفته على وجهه من قبل.

لم تكن حنونة، ولا غاضبة.

بل مشبعة بشيءٍ آخر.

شيءٍ جعل قلبي يضطرب دون سببٍ مفهوم.

تقدم خطوة نحوي.

ثم قال بهدوءٍ مشؤوم:

— هل...

— عرفتِ ما لا يجب أن تعرفيه؟

تجمدتُ في مكاني.
كان هناك شيءٌ بداخلي يريد أن يصرخ.
أن يهرب.
أن يختفي.
لكنني لم أفعل.
كل ما استطعتُ فعله...
هو أن أتشبث بدفتر الذكريات الذي ما زال يتوهج بين يدي.
وأحدق في خالي.
غير متأكدةٍ إن كان يسألني...
أم يهددني.


ما لم يُكتب
الفصــل
7

غادر خالي الغرفة دون أن يقول كلمةً أخرى.
ترك خلفه أسئلةً أكثر من الأجوبة، وغموضًا لم يحاول تفسيره، ولا حتى التلميح إليه.
فقط تلك الابتسامة... ثم الصمت.
أُغلق الباب خلفه.
لكن الباب الذي انفتح في داخلي لم يُغلق.
جلستُ على الأرض، وما زال دفتر الذكريات بين يديّ.

كان الضوء المنبعث منه قد خفت قليلًا، لكن ما إن فتحت الصفحة الأخيرة حتى انتشر النور في الغرفة من جديد.
كانت هناك صفحة، صفحة لم تُكتب بعد.
بدت بيضاء تمامًا.
ومع ذلك...
كانت تنبض.
حدقتُ فيها طويلًا.
ثم حاولتُ أن أكتب، أي شيء، أي كلمة.
أي أثرٍ يدل على أنني ما زلت أملك القدرة على الاختيار.

لكن يدي لم تتحرك.
كأن الصفحة لم تكن تنتظر كلماتي، بل كانت تنتظر شيئًا آخر، شيئًا قادمًا من ماضٍ لا أتذكره.
أغلقتُ الدفتر ببطء، ثم أغمضتُ عينيّ.
بدأتُ أسترجع كل ما حدث.
الصرخات خلف الباب، الطفلة الباكية، الصورة القديمة، الظل الواقف في الخلفية، اسم جان، كلمات خالي...
وتلك العبارة التي ما زالت تتردد في رأسي:
"***ما تتذكرينه ليس الحقيقة... بل ما تُرك لكِ لتتذكريه.***"
فتحتُ عينيّ فجأة...
شعرتُ بأن الأسئلة تتكاثر داخلي كالعاصفة.
من الذي يتحكم في ذاكرتي؟ ولماذا؟
هل كل ما أعيشه الآن حقيقي؟
أم أنني أسير داخل قصة كُتبت لي مسبقًا؟
هل أملك إرادتي فعلًا؟ أم أنني مجرد ظلٍّ لشخصٍ آخر؟
مجرد امتدادٍ لذلك الكيان الذي ينتظرني في نهاية الطريق؟

عندها...
شعرتُ بشيءٍ غريب، شيءٍ جعل أنفاسي تتباطأ.
الغرفة...
كانت تتنفس.
رفعتُ رأسي ببطء.
الجدران بدت أقرب مما كانت عليه قبل لحظات، وكأنها تزحف نحوي.
الأرض تحت قدميّ ارتجفت ارتجافةً خفيفة.
ثم أخرى، ثم أخرى.
بدأ الضوء يخفت ويعود، يخفت ويعود.
كما لو أن المكان كله ينبض بالحياة... أو بالموت.
لم أعد أعلم.
أمسكتُ الدفتر بقوة.
وكان قلبي يخفق بعنف.
فجأة أدركتُ أمرًا مرعبًا.
الصفحة التي لم تُكتب بعد...
لم تكن تنتظر أن أكتب فيها.
بل كانت تكتب نفسها.
والأسوأ من ذلك...
أنها بدأت تُكتب من حولي.

الفصل 8

الظل الذي يكتبني



أنا

كلما ظننتُ أنني وصلت إلى نقطةٍ واضحة...
تلاشى الضوء من جديد.
استيقظتُ صباحًا، وكان الدفتر ما يزال إلى جواري.
لم يكن هناك أي أثرٍ للصفحة البيضاء.
ولا لاسم "جان".
كأن شيئًا لم يكن.
أو كأن الليل كله لم يكن سوى مسرحٍ لعقلي.
لكنني كنت أعلم أن الأمر أعمق من مجرد حلم.
أردتُ مغادرة الغرفة.
لكن خطواتي بدت ثقيلة على نحوٍ غريب.
حتى الأرض نفسها شعرتُ وكأنها ترفض وجودي فوقها.
وفي كل زاويةٍ من المنزل، كانت عيناي تلتقطان تفاصيل جديدة.
تفاصيل لم أرها من قبل.
رأيتُ صورةً قديمة لخالي وهو يحملني وأنا طفلة.
لكنها لم تكن الصورة التي أتذكرها.
لم يكن يبتسم فيها كما اعتاد.
كانت ملامحه جامدة.

وكأن أحدًا أجبره على الوقوف أمام الكاميرا.
توقفتُ طويلًا أمام الصورة.
ثم تابعتُ طريقي نحو المطبخ.
كانت أمي هناك، تقلب الشاي بهدوء، لكنها لم ترفع عينيها نحوي.
وكأن ظلًا ثقيلًا خيم على المنزل منذ الليلة الماضية.
قلتُ بخفوت:
— أمي...
— هل كان خالي هنا البارحة؟
لم تُجب.
استمرت في تحريك الملعقة داخل الكوب.
ثم رفعت رأسها ببطء وقالت:
— منذ متى لم نره يا زينة؟
تجمدتُ.
تابعت بنبرةٍ هادئة:
— خالك مات منذ سنتين.
شعرتُ بالأرض تميد بي.
لا... هذا مستحيل.
لقد رأيته الليلة الماضية.

رأيته بعيني، تحدث إليّ وسألني.
وابتسم تلك الابتسامة الغريبة.
تمتمتُ مرتبكة:
— لا...
— لا تمزحي يا أمي.
— لقد دخل غرفتي.
— تحدث معي.
قاطعتني بصوتٍ بارد:
— زينة...
— لقد دفنّاه مع أشياء كثيرة.
ثم أضافت:
— لا تفتحي الصناديق من جديد.
شعرتُ بشيءٍ ينكمش داخل صدري.
شيء يشبه الخوف.
أو الحقيقة.
ركضتُ إلى غرفتي.
أغلقتُ الباب خلفي بعنف.
ثم فتحتُ الدفتر من جديد.
وفي المنتصف...
وجدتُ الصفحة البيضاء.

لكنها لم تعد بيضاء.
كانت مغطاة بسطورٍ صغيرة.
مكتوبة بخطٍ لم يكن خطي.
وجاء فيها:
"الظل الذي يكتبك... لم يتركك أبدًا.
أنت لم تفقدي ذاكرتكِ، بل خُلقتِ بها هكذا.
هم لا يريدونكِ أن تعرفي...
لكن جان... لا ينسى."
شهقتُ، وشعرتُ بأن قلبي يتسارع حتى كاد يخرج من صدري.
من هو جان؟ هل هو جزءٌ مني؟ أم أنه من يتحكم بي؟
هل عاد خالي من الموت؟ أم أنني أنا من لم أخرج من الحلم أصلًا؟
هل كنتُ أعيش طوال هذه السنوات حياة شخصٍ آخر؟
هل كتبتُ نفسي؟
أم أن أحدًا آخر كتبني؟
ارتجف الدفتر بين يديّ.
ثم انطفأ الضوء فجأة.

في اللحظة نفسها... شعرتُ بوجود أحدٍ خلفي.
كالعادة، التفتُّ بسرعة.
لم يكن هناك أحد.
لكن شيئًا آخر كان هناك.
ظلّي... كان ما يزال واقفًا، بينما كنتُ أنا قد استدرت.
تجمد الدم في عروقي.
حدقتُ فيه.
أما هو...
فكان ينظر إلى المرآة.
لم يتحرك.
ولم يلتفت نحوي.
بدأتُ أتنفس ببطء، محاوِلةً ألّا أصدر أي صوت.

كانت المرآة أمامه، كن الانعكاس لم يكن انعكاسي تمامًا.
نفس الملامح، نفس الشكل، لكن العينين...
لم تكونا عينَيّ، كانتا أعمق،وأقدم.
وكأنهما تنظران إليّ من مكانٍ بعيد، مكانٍ أعرفه...
رغم أنني لم أره يومًا.

خطوتُ خطوة إلى الأمام.
ظلّي لم يتحرك.
ثم خطوة أخرى.
وفجأة...
بدأت المرآة تتغير.
لم تعد تعكس الغرفة.
ولم تعد تعكسني.
بل بدأت تعرض صورًا متكسرة، ومشاهد متداخلة، كأن الزمن نفسه يتحطم داخلها.
طفلة تبكي في زاويةٍ مظلمة.
أبي يصرخ.
خالي يقف عند الباب.
ثم...
جان.
لم يكن وجهه واضحًا.
لكنني شعرتُ بوجوده.
كان حاضرًا في كل المشاهد.
كشبحٍ يتنقل بين الذكريات.
لا تراه العيون.
لكن القلب يعرفه.

رفعتُ يدي ببطء ولمستُ الزجاج، فشعرتُ بحرارة خفيفة.
نبض، ثم نبض آخر، وكأن المرآة كائنٌ حي.
همستُ:
— من أنت؟
في اللحظة نفسها...
انطفأت المرآة، وغرق كل شيءٍ في الظلام، ثم سمعتُ صوتًا خلفي، صوت خالي.
قال بهدوء:
— عرفتِ أكثر مما يجب يا زينة.
استدرتُ ببطء.
كان واقفًا عند الباب، هادئًا على نحوٍ مخيف.
تقدم نحوي بخطواتٍ ثابتة.
ثم قال:
— كانت المرآة ستُظهر لكِ الحقيقة.
— لكنها ليست ناضجة بعد.
صمت لحظة.
ثم تابع:
— هناك أجزاء لم تكتمل، ذكرياتكِ متداخلة، وهذا المكان يحاول إخفاءها عنكِ.

ابتسم ابتسامة باهتة.
وقال:
– لكن الآن...
– هناك سؤال أهم.
رفع عينيه نحوي مباشرة.
وقال:
– هل تريدين أن تعرفي كل شيء؟
– أم تفضلين أن تبقي كما كنتِ؟
كنتُ على وشك الإجابة.
لكن شيئًا ما في عينيه جعل الكلمات تتعثر في حلقي.
خرج السؤال من بين شفتيّ دون إرادةٍ مني:
– هل أنا حقًا... زينة؟
نظر إليّ طويلًا.
ثم أجاب بصوتٍ عميق وغامض:
– زينة...
– هي البداية فقط.

IT WAS A NIGHTMARE

ZEINAB HAMDO ALI

إلى كل من عرف معنى الخوف، وعاش ما عجز الآخرون عن تصديقه...

إن رأيتم أنفسكم بين هذه الصفحات، فاعلموا أنكم لم تكونوا وحدكم.

فبعض الكوابيس لا تنتهي عندما نستيقظ منها...